السيد محمد رشيد رضا

بمناسبة مرور خمسة أعوام على وفاته

للأســـتاذ محمود أبو رية

من حق شيخنا الإمام السيد محمد رشيد رضا علينا أن نؤدي بعض ما يجب له من التنويه بفضله ، والإشادة بذكره ما أتيحت لنا الفرص وما واتتنا المناسبات . وكذلك من الحق على الرسالة الغراء وقد حملت علم العربية في لغتها ودينها أن تتحفى بهذا الإمام الجليل فتخصه بجانب من عنايتها ، وتجعل لآرائه نصيباً من صفحاتها ، ومن أولى بهذه الحفاوة منها وهي أحق بها وأهلها ؟

هذا ما يجب علينا وعلى الرسالة ، لأن هـذا الحجة الثبت ليس من كبار علماء عصره فحسب ، وإنما هو ولا ريب من كبار أئمة الإسلام على مد عصوره ، خدم دينه وأمته بما لم يخدمها أحد قبله منذ قرون طويلة ، وخلف آثاراً خالدة في دراسة الدين الإسلامي لم يكتب قلم عالم من قبل مثلها - ونحن نعرف ما نقول - وفسر كتاب الله تفسيراً هو معجزته في هذا العصر . إذ لكل عصر تفسير يكشف لأهله عما فيه من أسرار رائعة وآيات بينة حتى تظل حجة الله قائمة ومعجزة رسوله دائمة ؛ ونحن فيما نكتب عنه اليوم لا نحاول أن نترجم له ترجمة تحليلية مفصلة تحيط بنواحي عبقريته وتنفذ إلى أقطار إمامته ؛ فإن ذلك يحتاج إلى مؤلف كبير برأسه نرجو أن نوفق فيه ويعيننا الله عليه ؛ وإنما ننشر بمناسبة مرور خمسة أعوام على وفاته صفحة من تاريخه تصور ناحية من فضله وتظهر قبساً من أعماله يضيء جانباً من علمه

نبت شيخنا الجليل ونشأ في قرية (القلمون) من قرى الشام ؛ ولما قرأ القرآن والخط وقواعد الحساب أدخل معاهد العلم بمدينة (طرابلس) ، وبعد أن أتم الدراسة فيها على ما يجري عليه نظام التدريس في هذه المعاهد واستوفى كل العلوم الدينية والأدبية على أكابر شيوخ الدين والأدب فيها هاجر إلى مصر فجاءها في رجب سنة ١٣١٥ عالماً دارساً . وكان الذي ساقه إلى الهجرة إلى مصر أن آنس في نفسه أنه يستطيع خدمة دينه وأمته بما أوتي من حدة الفؤاد واستقامة الفكر وما وهب من قوة الإرادة وكمال الاستعداد ، وأن ذلك غير مستطاع في بلاده إذ كانت يومئذ بين ما ضنى الظلم التركي ، قال رحمه الله في ذلك :

« فعزمت على الاتصال بالسيد جمال الدين لتكميل نفسي بالحكمة والجهاد في خدمة الملة ، فلما توفاه الله تعالى إليه واشتهر أن السياسة الحميدية هي التي قضت عليه ضاقت عليّ المملكة العثمانية بما رحبت وعزمت على الهجرة إلى مصر لما فيها من حرية العمل واللسان والقلم ، وكان أعظم ما أرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفاده الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة وخطة الإصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين ، وأن أعمل معه وبإرشاده في هذا الجو الحر »

وقد اتصل بالأستاذ الإمام محمد عبده من أول يوم هبط فيه مصر وكان معه كما قال رحمه الله : « كاللازم والملزوم اللذين لا ينفك أحدهما عن الآخر » يستزيد من علمه ، ويستضيء بحكمته إلى أن صار ترجمان أفكاره والمعبر عن آرائه ، ولم يلبث قليلاً في حياته الجديدة حتى أخذ نفسه بما جاء من أجله ، فأنشأ مجلة (المنار) وصدر أول عدد منها في اليوم الثاني والعشرين من شهر شوال سنة ١٣١٥ وقد جعل غرضها الأول :

« الحث على تربية البنات والبنين ، والترغيب في تحصيل

والشاعر علي محمود طه قد تأثر في قصيدته محنة باريس المنشورة بالرسالة عدد (٣٦٩) بمقال للدكتور طه حسين بك في الثقافة عنوانه باريس (عدد ٧٧) فالدكتور طه حسين بك يقول : (ليست باريس رقعة من الأرض) ، والشاعر علي محمود طه يقول مخاطباً باريس :

لست بنياناً ولا أرضاً ولا ... غاب آساد ولا جنة غيد

هذه كلمة أحببت أن أقولها بمناسبة كلمتين نشرتا في الرسالة بعنوانين هما « من عجائب الاجتهاد » و « من عجائب الفهم » . وما أود أن أغمط بها فضل ذي فضل ؛ وإنما هي كلمة حق لعلها تضع حداً للأمور ليس من مصلحة الأدب كتمانها والسلام .

(المنصورة) محمد عبد الغني حسن

العلوم والفنون ، وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم ، والتنشيط على مجاراة الأمم المتمدنة فى الأعمال النافعة ، وطروق أبواب الكسب والاقتصاد ، وشرح الدخائل التى مازجت عقائد الأمة ، والأخلاق الرديئة التى أفسدت الكثير من عوائدها ، والتعاليم الخادعة التى لبست الناس بالرشاد ، والتأويلات الباطلة التى شبهت الحق بالباطل ، حتى صار الجبر توحيداً ، وإنكار الأسباب إيماناً ، وترك الأعمال المفيدة توكلا ، ومعرفة الحقائق كفراً وإلحاداً ، وإيذاء المخالف فى المذاهب ديناً ، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً ، واختبال العقل وسفاهة الرأى ولاية وعرفاناً ، والذلة والمهانة تواضعاً ، والخشوع للظلم والاستسلام للضيم رضى وتسليما ، والتقليد الأعمى لكل متقدم علماً وإيقاناً الخ »

كان الذى يرمى إليه شيخنا المحدث الفقيه ويدأب عليه فى عمله هو « الإصلاح الدينى والاجتماعى وبيان اتفاق الإسلام مع العلم والعقل وموافقته لمصالح البشر فى كل قطر وفى كل عصر »

وكان رأيه الذى لا ينفك يجاهر به من يوم أن أنشأ فيه مجلته أن الدعوة إلى هذا الإصلاح لا تكون إلا « بهداية الكتاب والسنة ، لأنهما مشتملان على كل ما تحتاج إليه لأجل الهداية والنهضة الاجتماعية »

وهذه الطريقة فى الإصلاح هى التى وضع أساسها موقظ الشرق السيد جمال الدين ، وعممها تلميذه الأكبر الأستاذ الإمام محمد عبده رحمهما الله ؛ ثم جاء شيخ الإسلام السيد رشيد فرفع قواعدها وأتم بناءها ، ولولاه لا ندك هذا الأساس وغطاه تراب النسيان ...

ولم يكن ما دعا إليه شيخنا رحمه الله سهلاً ولا طريقه ميسرة ، وبخاصة فى مثل الزمن الذى ظهرت فيه دعوته ، فقد وجد فى سبيله ما يجده المصلحون فى أممهم من المحنة والأذى ، فحورب من نواح متعددة لا يصمد لمثلها إلا كل مصلح قوى ، وشجاع كمى . وقد بيّن رحمه الله تلك النواحى التى عادت المنار فقال :

« عاداه المرتزقون بالخرافات والبدع من أهل الطريق وغيرهم ، وعاداه علماء الجمود ، وعاداه النفوذ الاستعمارى الدولى ، وعاداه دعاة التغيير والتفرنج الإلحادى » وقبل ذلك عادته الدولة العثمانية من أول ظهوره وآذته فى أهله ببلاده

وكان الذى أثار عليه أعاصير هذه العداوات لتزعزع من أركانه ، وتهدم من بنيانه ، أن كان لا يألو جهداً فى الدعوة إلى حرية الفكر ، والاستقلال فى فهم العلم الذى لا ينال العلم الصحيح بدونه ، وترك التقليد وعدم التقيد بمذهب من المذاهب لأن التقيد بالمذاهب يدعو إلى التعصب لها ؛ والتعصب ، وهو مفض إلى التباغض ، ينافى الوحدة الإسلامية ، ويخالف نصوص القرآن . وكان هو العالم الوحيد بعد عصر الأئمة المجتهدين الذى يجاهر بأنه لا يقلد فى عقائده ولا فى عباداته أحداً من الأئمة ، فكان لا يعبد إلا الله ولا يعبده إلا بما أمر ، وإذا تنازع مع أحد فى شىء لا يرد التنازع إلى أحد من الأئمة والمشايخ وإنما كان يرده إلى الله والرسول أى إلى الكتاب والسنة . ولقد كان أشد الناس عداوة له دجاجلة القبوريين من الشيوخ الرسميين الجامدين ومن يتبع نسيقهم من الإمعات الجاهلين الذين هم بلاء الأمم وأرزاء الشعوب

وإذا كان الكلام عن نواحى الإصلاح التى ضرب فيها شيخنا السيد رشيد متعددة والحديث عنها يحتاج إلى مقالات طويلة ودراسة مستفيضة كما أبنّا من قبل ، فإنا نقصر كلامنا اليوم من ترجمته على ما سعى فى سبيل إصلاح الأزهر وتجديد الدين الإسلامى . وما انتحينا هذا النحو إلا لمناسبة حركة الإصلاح القائمة بهذا المعهد اليوم ، ولأن مجلة الرسالة الغراء قد جعلت تجديد الدين من أهم أغراضها ، وجرت الأقلام بهذا الأمر على صفحاتها لعل فيما نذكره تبصرة للمصلحين وميناً للمجددين

ولا يفوتنا أن نذكر أن الذى دعا شيخنا رحمه الله إلى ذلك أن وجد هذا المعهد الكبير لا يدرس فيه الدين وعلومه كما يجب أن تكون الدراسة الحق بل كان « التقصير فى دراسة الإسلام فيه أمر ظاهر » كما بين ذلك أبلغ بيان أديب العربية الكبير « محمد إسعاف النشاشيبى » فى كتابه النفيس الممتع (الإسلام الصحيح)

ولقد كان أول نقد صريح وجهه (المنار) إلى علماء الأزهر الذى صدر فى شهر شعبان سنة ١٣١٦ عن بدعة احتفالهم بمولد

الإمام الشافعي الذي يسمونه (الكنسة) إذ كانوا يكنسون قبة الضريح ويقسمون كناستها بينهم للتبرك بها ويكون نصيب كل واحد منهم في هذه الكناسة بمقدار درجته العلمية ، وكذلك كانوا ينقلون العمامة التي على المقام من رأس عالم إلى رأس آخر ليستزيدوا من البركات ويستكثروا من النفحات . ورحم الله شيخنا المحدث اللغوي الكبير الشيخ محمد محمود الشنقيطي فقد سحت قريحته بقصيدة رائعة في هاتين العبادتين الوثنيتين اللتين يقترفهما علماؤنا مصابيح الظلام ، وأئمة الهدى الأعلام ؛ ولو كان المجال ذا سعة لأوردنا هنا هذه القصيدة العصماء ، ليعجب القراء بها ، ويتندروا بما جاء فيها

وكان أول انتقاد على علماء الأزهر أن أحد أعضاء مجلس إدارة الأزهر وهو الشيخ أحمد الرفاعي كان يجادل يوماً الأستاذ الإمام محمد عبده في أمر علم السنة وتعليمها ، فكان مما قال هذا الشيخ : « إن علم السنة لا حاجة إليه ، ولا يجوز لمسلم أن يأخذ بالحديث ، بل (الواجب) الأخذ بكلام الفقهاء ، ومن يترك فقهاء مذهبه للأخذ بحديث مخالف فهو زنديق » !

ثم أخذ المنار يبين لشيوخ الدين أنهم أبعد الناس عن معرفة فن التعليم ، وأنهم لا يقرنون العلم بالعمل ، وكان يحثهم داعماً على العناية بعلم الأخلاق . ولما وجدهم يصدون عن تعليم العلوم الرياضية والطبيعية ، وأن كبارهم يفتون بأن هذه العلوم لا لزوم لها ، صاح فيهم : « إن الإصلاح الإسلامي يتوقف قبل كل شيء على إقناع العلماء ورجال الدين بأن العلوم الرياضية والطبيعية التي هي محور الثروة والقوة لازمة لا مندوحة عنها ، ويجب أن تعلم مع الدين »

ومما عابه عليهم وآخذهم به أنهم يشاركون العامة في الخرافات والبدع ولا يكتفون بذلك بل يدعون الناس إليها ويحضونهم عليها مما جعلنا ضحكة بين الأمم وسخرية بين الشعوب ، ولأن هذه الكلمة لا تحتمل تفصيل القول في جهوده لهذا الإصلاح فإنا نأتي بها مجملة وهي :

١ — استقلال الفكر وحرية العقل في العلم واجتناب تقليد العلماء والكتب فيه

٢ — إبطال البدع والخرافات ، والتقاليد والعادات التي أفسدت العقائد والأخلاق والأعمال وروجت في المسلمين أسواق الدجل والخرافات ... ولا سيما بدع الموالد وعبادة القبور والمشاهد ، وأكبر مفاسدها اشتراك علماء الأزهر فيها وسكوت غير المشتركين فيها عن إنكارها فكانوا بذلك قدوة سيئة للعوام ، وفتنة منفرة للمتعلمين عن الإسلام ، وحجة للكافرين على المسلمين

٣ — الرجوع إلى هداية القرآن العليا وهدى السنة النبوية العملي في تصحيح العقائد وتزكية الأنفس وتهذيب الأخلاق ، والاتباع المحض في العبادات على منهاج السلف الصالح وهو يتوقف على إحياء علوم التفسير والسنة وآثار السلف

٤ — إصلاح نظام التربية والتعليم والتصنيف بالأساليب العصرية

٥ — إدخال علوم البشر في الجامع الأزهر ومعاهد التعليم التابعة له

٦ — اتباع سنة التخصص (أو الإخصاء) في العلوم والفنون

٧ — إعادة ثقة الأمة بالعلماء إلى ما كانت عليه في عصور الإسلام الحية

٨ — الدفاع عن الإسلام بالرد على الملاحدة ودعاة النصرانية ودحض شبهاتهم

٩ — الوعظ والإرشاد العام للمسلمين

١٠ — الدعوة إلى الإسلام في الشرق والغرب بعد الاستعداد لها

هذه هي خلاصة جهاده رحمه الله في سبيل إصلاح الأزهر

وإذا كان رحمه الله قد ذكر في آخر حياته أن كليات الأزهر قد اقتنعت بأكثر ما دعا إليه وأنها ستأخذ به كله واطمأن بذلك فإنا إن شاء الله لمطمئنون كذلك بأن الأزهر سيبلغ المنزلة التي يستأهلها في العالم كله على مد أقطاره ما دام الذي يقبض على زمامه اليوم هو الإمام المراغي وما دام شبابه من حوله يؤيدونه ويتبعون سبيله

وإلى هنا نقف في القول في ترجمة شيخنا المحدث الفقيه السيد محمد رشيد رضا ، ولكيلا يرمينا أحد بالغلو فيما تحدثنا به عنه نطرز ما قلنا بعبارة رائعة في وصفه للأستاذ الأكبر شيخ الجامع

الأزهر، ذلك الإمام الجليل الموصوف بسعة العلم وبعد النظر ودقة التعبير ، نجملها مسك الختام

قال حفظه الله فى خطاب بليغ ألقاه فى حفلة تأبينه :

« كان فقيد الإسلام السيد محمد رشيد رضا محيطاً بعلوم القرآن ، وقد رزقه الله عقلاً راجحاً فى فهمه ، ومعرفة أسراره وحكمه ، واسع الاطلاع على السنة وأقضية الصحابة وآراء العلماء عارفاً بأحوال المسلمين فى الأقطار الإسلامية ، ملماً بما فى العالم من بحوث جديدة ، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان ؛ فهو ممن أوتي الحكمة ورزق الخير الكثير

وقد كان - بلا شبهة - أكبر المدافعين عن قواعد الإسلام وأشدهم غيرة عليها ، فنى فى خدمة دينه وجاهد فى الله حق جهاده وأوذى فى سبيل مبادئه وصبر وصابر إلى أن توفى رحمة الله عليه

كان مبدؤه مبدأ جميع علماء السلف: التحاكم إلى الله ورسوله عملاً بقوله تعالى (فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول)

وكان مبدؤه مبدأ علماء السلف أيضاً : تخيّر الأحكام المناسبة للزمن والنافعة للأمم فى مواضع الاجتهاد

وكان مبدؤه مبدأ علماء السلف فى كل ما يتعلق بذات الإله سبحانه وصفاته ، وكل ما يتعلق باليوم الآخر ؛ فهو رجل سنى سلفى يكره التقليد وينادى بالاجتهاد ويراه فرضاً على نفسه وعلى كل من قدر عليه

من الحق أن نعد السيد رشيد من المجددين ، وأن نعده من المجاهدين فى إحياء السنة ، ومن الحق أن نعتبر بما كان للسيد رشيد من أناة وصبر فى البحث والقراءة ، والتأليف والفتوى والمناظرة ؛ ومن الحق أن نذكر أن هذه الأعمال الصالحة قام بها احتساباً وأدّاها فى سبيل الله

فرحمة الله على السيد رشيد وجزاه الله فى الإسلام أحسن ما يجازى به رجل وهب حياته للعلم والدين » . ونحن نكرر طلب الرحمة والرضوان من الله تعالى عليه ، إنه سميع الدعاء .

(المنصورة) محمود أبو ريه

شركة بيع المصنوعات المصرية

هيّ فرنى فى مبرز وضائها ...

★ الجمال
★ الذوق
★ المتانة

علامة على رخص أسعارها